

دير القديس أنبا مقار
ببرية شيهيت

الوعد تأملات في الميلاد

الأب متى المسكين

كتاب: الوعد تأملات في عيد الميلاد
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٦ هدية مجانية
مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون.
ص.ب. ٢٧٨٠ القاهرة.
الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

St. Mark's Review House

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون: ٢٥٧٧٠٦١٤ (٠٢)

Cairo: 28 Shobra Street Tel: +2 (02) 25770614

الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠ (٠٣)

Alexandria: 8, Green Str., Moharram Bey Tel: +2 (03) 495 2740

أو من المكتبة بمقر الدير _ وادي النطرون

أو من موقع الدير على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org

الوعد

تأملات في الميلاد

عشرون قرناً مضت منذ وعد الله إبراهيم والآباء. بمجيء
المخلص والفادي، وعلى مدى هذه السنين الطوال ظلَّ يترقبه
الأتقياء في كل جيل، عابدين بالجهد «ليلاً ونهاراً» (لو ٢ : ٣٧)،
وكل جيل يسلم وديعة الترقب الحار الذي لا ينجمد إلى الأبناء ثم
يرقدون على الرجاء!

وفي هذا الشعور المرهف الحساس، الذي يترقّب تتميم الوعد
في كل يوم وكل لحظة، كان يقرأ الملهمون النبوات ويطبّقونها
على الحوادث لعلهم يحصلون على شيء من ملامح القادم أو
قرب الزمان.

ولم يستطع طول الزمان أن يضعف حركة هذا الترقّب ولا
الحوادث الجسيمة استطاعت أن تخمد هذه النار المتأججة، بل
على النقيض كانت خفقات القلب تزداد بمرور الزمن وهيب
الشوق يشتد بعصف الحوادث، وكأما المسياً الآتي من وراء الزمن
تستدعيه الأيام وتتعلّله الحوادث!!

ولما بلغت المحنة أقصاها كان قد بلغ الترقّب غايته ووقف
المنتظرون على أصابعهم بإحساس منْ قد بلغ النهاية، تتطلع
نفوسهم بأقصى جهد «نحو أربع وثمانين سنة لا تفارق الهيكل
عابدة بأصوام ليلاً ونهاراً مع جميع المنتظرين فداء في أورشليم»

(لو ٢ : ٣٧). وفعلاً كانت الأيام قد بلغت ملئها وكفَّ الزمان عن دوراته الفارغة، فأعطيت الإشارة من لدن القدير لظهور ابن الله في الجسد ليكون هو المسميَّ الموعود به مسيح الرب المخلص والفادي: «ولما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس، ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبرّح». (غل ٤ : ٤،٥)

هذا هو الغصن الذي نبتَ من جذع يسىَّ الأسد الخارج من سبط يهوذا.

«شيلون» رجل السلام، الكوكب المشرق من سبط يعقوب...

بذرة إبراهيم الذي تتبارك به كل ممالك الأرض ويرد الفجور عن إسرائيل...

نسل آدم، العتيد أن يرفع ذلة بني آدم ويسحق رأس الحيّة... هذا هو الناقض لهيكل الحجارة الزمني فخر إسرائيل المنهدم، والبابي لهيكل الروح في قلب الإنسان!

هذا هو الوسيط والمُصلح للأرض مع السماء والشعب مع الشعوب والنفس مع الجسد!

هذا هو المسيح الذي خرج نوره إلى أقصى الأرض، الذي لم يعرف له العالم مثيلاً أو شبيهاً أو معادلاً.

ابن الإنسان الذي وُلد من عذراء، وعاش بلا خطية، ولم يوجد في فمه غش.

ابن الله الذي علّم بسلطان، وكان كلامه روحاً وحياءً، له

قدرة الخلق والإقامة من الأموات!

كلمة الله الذي أنار بشخصه في وسط العالم طريق الحياة والخلود، وأسّس في قلب الإنسان ملكوت الطهارة والقداسة والمحبة والسلام!

الراعي الصالح الذي ما يزال يقود قطيعه في كل الأمم إلى مرآقي القداسة والحق، الذي قدّم نفسه، مرّةً، فِدْيَةً عن الخروف الضال.

فإن كان قد رفضه اليهود الصالبن غير الأتقياء، لأنهم لم يروا فيه عظمة المَسِيَّا الذي توهموه بقوة الذراع وبأس السيف وسطوة الذهب، فعلى كل حال قد أكمل المسيح كل أعمال المَسِيَّا ولم يتبقَّ من بعده عمل واحد لمَسِيَّا آخر يأتي، إلا الدينونة المزمعة أن يكملها على كل الذين رفضوه وأهانوه وأحبوا الظلمة أكثر من النور.

وإن كان قد ترقّبه اليهود مولوداً في «قلعة قصر في بيت لحم»، حسب ما فسّره بعض الرّيبين وعلماء التلمود لأقوال ميخا النبي، فميلاده في مذود للبهائم حطّم كل كبريائهم وحجزهم عن الإيمان به، كما أثبت ضمناً أن قصة الميلاد من وضع إلهي دُبِّرَت بعناية فائقة لتناسب اتضاع الخلاص وليست من نسيج كبرياء الإنسان!

شهر ديسمبر ("تب هث" اليهودي) في فلسطين وإن كان ليس مطيراً نسبياً، إلا أنه من أشد شهور السنة برودة. لذلك كانت الرحلة من الناصرة إلى بيت لحم، والتي استغرقت ثلاثة الأب متى المسكين - ٥

أيام كاملة^(١) شاقة للغاية ومُجهدة للعدراء أقصى إجهاد. وما أن انتهى يوسف ومعه مريم القديسة من الاستقرار في المغارة الملحقة (بالخان)^(٢) والمعدّة (للركائب) - إذ لم يجدوا مكاناً في (الخان) نفسه؛ حتى بدأ يرخي الليل سدوله لأن نهار الشتاء قصير... فأسرعوا وأفرغوا ما في (الخُرج) من أدوات السفر والأكل والملابس القليلة والغطاء الذي افترشوه، وجلسوا ليسترخوا.

كان كل شيء حولهم غير مناسب ولا يمكن أن يقبله ذوق أي إنسان، وبالأخص لو أدخل في الحسبان احتمال حدوث "وضع" في هذا المكان بهذه الظروف، ويكاد الإنسان بمشقة أن يضبط قلمه من أن يسترسل في وصف صعوبة هذا الحال وبؤسه، كرامة للمولود! ولكن من ناحية أخرى مهمة وذات اعتبار جوهرى، أن هذه الظروف بعينها كانت تتناسب كل التناسب مع مشيئة يسوع المسيح نفسه إذ أراد أن يدخل إلى العالم بهذه الكيفية تماماً!!

(١) لقد فضّل يوسف على وجه الترجيح أن يتفادى المرور بالسامرة جرياً على عادة اليهود، فاضطر أن ينحدر شرقاً ويسير بمحاذاة ضفة الأردن الشرقية، ثم يعبر الأردن قبالة مخاضة أريحا ثم ينحدر جنوباً بغرب نحو بيت لحم، وسواء اتخذ هذا الخط أو سار عبر السامرة فالرحلة من الناصرة إلى بيت لحم لا يمكن أن تستغرق أقل من ثلاثة أيام كاملة.

(٢) «الخان» هو المنزل المُعدّ لنزول المسافرين وقد وردت الكلمة *κατάλυμα* بهذا المعنى في الترجمة السبعينية خر ٤: ٢٤، وكان الخان قديماً يحتوي بالضرورة على مكان لاستراحة الركائب. والتقليد الكنسي ينص على أن المزود المذكور في الإنجيل أنه هو الذي وُلِدَ فيه المسيح، كان عبارة عن المكان الذي يوضع فيه التبن لتأكل منه البهائم، وكان داخل مغارة منحوتة في الجبل. وهي الآن المغارة التي بُنيت فوقها كنيسة الميلاد ببيت لحم، وهذا يدل على أن المغارة كانت ملحقة بالخان.

ألم يقل هو نفسه بعد ذلك ”طوبى للمساكين“؟

كان ممكناً، لو تقدّموا يوماً أو بعض يوم، أن يجدوا مكاناً أو ربما غرفة خاصة، ولكنه كان قد أضمر أن يسند رأسه أول ما يسنده في مذود للبهائم! ألم يقل هو نفسه فيما بعد أن: «ليس لابن الإنسان أين يسند رأسه» (لو ٩ : ٥٨)؟ إنه حقاً قد جاء ليجعل الراحة الحقيقية ليست للجسد وإنما للقلب! كما نوى بالفعل أن يجعل من تعبهِ راحة للمتعبين!

هو فضّل أن يولد بين البهائم الطيبة، ليس لأنه كان يكره الإنسان في شرّه، أبداً، ولكنه تنازل عن مكانه في الخان لإنسان آخر رآه أكثر حاجة!

لقد اختار أن يولد في هذه الظروف العجيبة: «الاكتتاب العام» أي التعداد، لكي يأخذ رقماً رسمياً كمواطن على الأرض! «مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس.» (غل ٤ : ٤

٥ -

ولم يكن جزافاً أن يأتي مجيء أمه إلى بيت لحم قبل الميلاد، بل هو قصد ذلك منذ الدهر إذ تكلم الأنبياء عن هذه المشيئة، لأنه شاء أن أول نسمة هواء تدخل صدره تكون من «بيت لحم» التي ترجمتها ”بيت الخبز“ - لأنه نوى منذ الدهور أن يقدم جسده قرباناً لأبيه وخبزاً حياً للعالم: «لذلك عند دخوله إلى العالم يقول ذبيحة وقرباناً لم تُرد ولكنك هيأت لي جسداً... ونحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة» (عب ١٠ : ٥، ١٠)، «أنا هو الخبز الحي النازل من السماء... الخبز الذي أنا أعطيه

هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم.» (يو ٦ : ٥١)



لم يكن مع العذراء في ساعة الوضع أي إنسان - ولعلَّ يوسف أيضاً كان في الخارج - لأن الكتاب لم يذكر عبثاً أنها هي بنفسها «قَمَطْتَهُ وَأَضْجَعْتَهُ فِي الْمَذُودِ إِذْ لَمْ يَكُنْ لهُمَا مَوْضِعٌ فِي الْمَنْزَلِ» (لو ٢ : ٧). ولم يقصد الرب هذا في نفسه ولأُمه ترفُعاً عن معونة الناس ولكنَّ **حفظاً لسر الميлад**، لأنَّ عجيبة ولادته من البتول يليق بها التحفظ والكتمان؛ ولقد حرصت العذراء في سردها لهذه الظروف سواءً للقديس لوقا كاتب الإنجيل أو لغيره أن يظل هذا السر مغلقاً دون استقصاء. ولكن ليس عسيراً على العقول الطاهرة النقية أن تلمح من وراء هذا الحجاب الصامت الملقى على القصة، بدقة وعمد، أبعاداً أخرى من الوقائع التي قد يكون سردها هنا أيضاً خروجاً على مشيئة الوحي!

ولكن على أية حال فهذا الاقتضاب الشديد في كشف وقائع الميлад، وإن كان فيه إجحاف بالبشرية المتعطّشة لمعرفة المزيد من ظروف أعظم ميلاد حدث على وجه الأرض لأعظم إنسان ظهر في الوجود، إلا أن هذا الاقتضاب عينه يرتفع بنا إلى مستوى الروح لنقدّم الوقار الفائق واللائق بالأم البتول، ونحني ساجدين لهذا الطفل الإله الذي خرج من حضن الآب السماوي ليلتقي بنا في المذود! نعم كان يليق فعلاً بالإنجيل هذا الأسلوب الإلهي المبدع لأن عبارات البشر مهما طالت ودققت، فهي ستقف في النهاية عاجزة عن وصف دخول المسيح إلى العالم!



لقد جاءت قصة الميلاد مُخَيِّبة لكل آمال اليهود وتقاليد شيوخهم، فكَوَّن المسيحاً يولد في مذود للبهائم شيء لا يطيقه العقل اليهودي، وقد قصد رب المجد أن يجعل من ميلاده آية اتضاعه حتى لا يؤمن به العقل إلا إذا انحنى إلى مستوى المذود، كما جعل صليبه آية طاعته العُظمى للآب حتى لا يخلص به إلا الذي ينحني تحت ثقله وعاره!

الرعاة المتبدون^(٣):

كان من الأمور الثابتة لدى الكهنة والربيين أن ميلاد المسيحاً سيتم في بيت لحم طبقاً لنبوَّة ميخا النبي «أما أنتِ يا بيت لحم أفراتة، وأنتِ صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا، فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل.» (مي ٥ : ٢)

ولكن من المدهش حقاً أن تمتد حساسية الأنبياء وقدرة المفسِّرين إلى تعيين كيفية البُشرى بميلاد المسيحاً ومكانها!! إذ يُعلق عليها كتاب ”الترجوم“^(٤) في شرحه عرضاً لسفر التكوين للآية ٢١ من الأصحاح الخامس والثلاثين - أن في المكان المذكور

(٣) المتبدون: أي المقيمون في البادية.

(٤) كتاب الترجوم هو الكتاب الذي كان يجوي ترجمة الأسفار الخمسة الأولى من اللغة العبرانية القديمة إلى اللغة الآرامية التي بدأ يتكلم بها الشعب اليهودي بعد رجوعهم من السبي وهو يشمل مع الترجمة شرحاً مختصراً تقليدياً عن الربيين الكبار.

باسم «برج القطيع» «ميجدال عدر» (انظر: تك ٣٥ : ٢١) سوف تُعلن بُشْرَى ميلاد المسيح، وذلك اعتماداً على ما جاء في سفر ميخا النبي (٤ : ٨)، الذي فيه يقول: «وأنتِ يا برج القطيع (ميجدال عدر) أكمة بنت صهيون، إليك يأتي ويجيء الحكم الأول ملك بنت أورشليم».

و«برج القطيع» هذا، أو «ميجدال عدر» كما جاء باسمه العبراني في سفر التكوين، هو بُرج مشيد على أكمة في حدود بيت لحم على الطريق نحو حبرون، وهو المكان الذي خيم فيه يعقوب بعد موت راحيل امرأته المحبوبة. والذي يقرأ في كتاب «المشنا»^(٥) يجد أن هذا البرج قديم، وكان يستخدمه الرعاة حُرَّاس قطعان الغنم الذين يُوكَل إليهم رعاية الغنم المخصصة للذبائح الهيكلية، وهي القطعان الوحيدة التي كان يُصرَّح لها بالوجود داخل حدود المدن وخاصة بالقرب من أُورشليم، وذلك لا يكون على مدار السنة بل في الأشهر المطيرة فقط التي تبدأ من شهر نوفمبر (كسلو)، أما بقية أيام السنة فيلزم أن تكون القطعان في البراري البعيدة عن المدن، ومن هذا يتحقق لنا أن ظهور الملاك المبشِّر كان لهؤلاء الرعاة بالذات، الذين لم يكونوا رعاة عاديين بل من أصحاب الوظائف الهيكلية كما ينص التلمود. وهكذا تحققت تماماً رؤيا ميخا النبي بكل صفاء وجمال، إذ

(٥) كتاب المشنا هو ملخَّص للقوانين والتعاليم الهامة لأعاضم الربيين وطريقته في التعليم تعتمد على ترديد الحقائق للحفاظ.

ظهر الملاك فعلاً لرعاة الذبائح الهيكلية من فوق هذا البرج ...
ولكن لا يفوتنا هنا أن نلمح سر اختيار هؤلاء الرعاة الهيكليين
بالذات دون جميع الرعاة، أليس المسيحاً عندما يجيء يكون هو
الراعي الهيكلي الحقيقي؟ ... «راعي الخراف العظيم» (عب ١٣ :
٢٠)؟

أليس هو أيضاً الذبيحة الحقيقية التي ستقدم مرة واحدة ليطل
عهد الذبائح إلى الأبد؟ إذن، فكانت البشريى بمثابة إعلان عن
الذي سيحل محلهم إلى الأبد! أو هي إن شئت تسليم وتسلم
عهد لعهد، فقد جاء الراعي الحقيقي الذي سيرعى الخراف
الناطقة، ليقدمها ذبائح حيّة بالطاعة والحب على مذبح القداسة.

إذن، فبشارة الملاك للرعاة لم تكن بغير ذي معنى، ومعناها
عميق لأنهم أول من اختارهم السماء ليستأنموا على سر الخلاص!
وكأنما شاء المسيح بصفته الحمل المهد للذبيحة العظمى أن
يولد في بيت لحم في تخوم «ميجدال عدر»، حيث تولد الخراف
عادة في قطعان الهيكل، ثم يُبشّر هؤلاء الرعاة بميلاده، كحمل بين
الحملان، ويؤمروا بزيارته ليدخل أيضاً ضمن حراستهم فيكون
منذ أول لحظة حملاً مُعداً للذبح!

ليلة الميلاد:

من الأمور المدهشة حقاً والتي لا يمكن أن نعزوها إلى
الصُدَف، أنه في العهد القديم كان يوجد تقليد متوارث للصوم في

اليوم التاسع من الشهر العاشر العبري ”تب هث“، ولكن أصوله الطقسية الأولى ونفاسير تقديسه ضاعت من التقليد اليهودي، إلا أنه كان معروفاً لدى الرابين المفسرين للطقوس، أن هذا اليوم يحوطه سرٌّ خاص وأنه سيتم فيه ميلاد المسيح، كما جاء في الكتاب الطقسي المدعو ”ميجلات تانيت“ (ص ٢٠). والعجيب في هذا الأمر حقاً أن هذا اليوم يوافق في التقويم الغربي ٢٥ ديسمبر، وقد قام بتحقيق هذا الموضوع العالم الألماني ”زئر“ المتخصص في هذه الأبحاث في كتابه (طقوس المجمع اليهودي صفحة ١٢٦). وقد تحقّق أنه في غضون ما بين سنة ٥٠٠م، ٨١٦م وافق مجيء هذا اليوم ٢٥ ديسمبر، ليس أقل من ١٢ مرّة (علماً بأن التقويم اليهودي ليس دقيقاً تماماً لأنه مرتبط بالقمر).

وهذا من شأنه أن يلفت نظرنا إلى أن تحديد هذا اليوم يحوطه سر عميق منذ الدهور، يدفعنا إلى تقديس هذا اليوم تقديساً يتناسب مع اهتمام الوحي الإلهي به.

ومعلوم أن عيد الميلاد تحدّد منذ بداية المسيحية - كما جاء في الدسقولية^(٦) - ليكون في اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع اليهودي ”كسلو“ وليس في اليوم التاسع من الشهر العاشر ”تب هث“ بفارق ١٣ يوماً وذلك نظراً للتغيير الذي

(٦) الدسقولية كلمة محرّفة عن أصلها اليوناني ديداسكاليا *Διδακαλία* أي كتاب التعليم، وهو منسوب للرسل لأنه يجوي ضمن تعاليمه الأصول الأولى التي استلمتها الكنيسة شفاهاً من الرسل، وله عدّة أصول أهمها الأصل الإسكندري وهو يجوي تعاليم كتبت على مدى الثلاثة أو الأربعة قرون الأولى.

طراً على التقويم اليهودي (الشهر القمري ٢٩ يوماً):
[يا إخوتنا تحفظوا في أيام الأعياد التي هي أولاً عيد ميلاد الرب وكمّله في اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع الذي للعبرانيين ”كسلو“ الذي هو اليوم التاسع والعشرون من الشهر الرابع ”كيهك“ الذي للمصريين.] (دسقولية ١٨)
وهذا اليوم الذي حدّدته الدسقولية (في القرون الأولى للمسيحية) يوافق ٦ أو ٧ يناير، وكانت الكنيسة كلها تعيّد هذا اليوم، ولكن بعد التعديل الغريغوري الدقيق الذي أخذ به الغرب عام ١٥٨٢م اعتماداً على الحسابات الفلكية، عاد هذا اليوم مرّة أخرى (دون أن يقصد الفلكيون ذلك) إلى وضعه الأول ليطابق ٩ ”تب هث“، وهذا أمر يُدهش له.

وقد استمرت الكنيسة في العصور الأولى تصوم هذا اليوم فقط حسب الطقس القديم، قبل أن يتحدّد صوم الميلاد بأربعين يوماً ثم بعد ذلك بثلاثة وأربعين يوماً، علماً بأن بدء دخول صوم الميلاد في الطقس القبطي جاء متأخراً وذلك في أيام البطريك خرستوذولوس السادس والستين ١٠٣٩م، وهو الذي قام بتحديدته وترتيبه (انظر: المجموع الصفوي ص ١٧٢ حاشية).

ولا يزال حتى الآن يحتفظ الطقس القبطي بأصل صوم اليوم الواحد قبل العيد الذي يدعوه البرامون (تفسير كلمة ”برامون“ **παραμονή** هو ”حفظ اليوم الواحد“).

الملاك الذي بشر الرعاة:

+ «وإذا ملاك الرب وقف بهم ومجد الرب أضاء حولهم.» (لو ٩ : ٢)

حسب التقليد المتوارث أن الملاك لا يصاحب ظهوره نور، إلا إذا كان بقصد الإعلان عن وجود الحضرة الإلهية، فالنور يكون دائماً تعبيراً عن المجد الإلهي. ومعروف أيضاً أن الملاك الذي يُعلن عن الحضرة الإلهية، هو الملاك ميخائيل.

وقد جاء ضمن التعاليم الطقسية التي تختص بالعهد القديم في كتاب ”المدراش“^(٧) المدعو ”شموث رابا“، وفيه تعاليم على سفر الخروج - أن ظهور الملاك ميخائيل يصاحبه دائماً نور الشاكيناه (الشاكيناه تعبير عبري عن الحضرة الإلهية المضيئة، وقد تَخَصَّصَ مكان ثابت لها ضمن خيمة الاجتماع في قدس الأقداس بين الكاروبين فوق غطاء التابوت حيث كان يتكلم الله مع موسى عند الضرورة). ويقول ”المدراش“ أن النار التي ظهرت في العليقة لموسى، كانت هي ”الشاكيناه“، وكان الملاك واقفاً خلفها، وموسى كان يرى الرؤيا وحده أما الذين معه فكانوا يسمعون صوته ولا يرون شيئاً (وهذا نجد مطابقتاً لحادثة رؤيا

(٧) كتاب المدراش هو المختص بدراسة كافة التعاليم الشفهية التقليدية للأسفار والناموس الشفاهي المتوارث بالتواتر. وفيه تعاليم قانونية وتعاليم عبارة عن أحاديث متواترة.

بولس الرسول تماماً، من جهة ظهور الرب وسط النور، ومن جهة عدم رؤية الذين معه لما كان يراه هو).

إذن فظهور الملاك للرعاة لتبشيرهم بميلاد رب المجد كان يصاحبه حضور إلهي، أي أن الرب كان حاضراً بنفسه في مجده، وهذا أمر واضح جداً من رواية الإنجيل «ومجد الرب أضاء حولهم»!!

هنا إشارة سرية أن الرب عندما كان مضطجعا في المذود في عتمة المغارة، كان يملأ السماء بمجده، وأن تجسده لم يغيّر ولم يحدّ من صفاته الإلهية الفائقة!! «الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو ٣: ١٣)

فإن كان المسيح قد ارتضى في تواضعه أن يُترك لدى عالم الإنسان بلا عناية، يحتضنه مذود للبهائم وتحوطه عتمة المغارة فهو لا يزال في عالم الروح تتبعه الملائكة والنور يحيط به، ألوف ألوف تسجد له، وربوات ربوات يقدمون له الخدمة!

جمهور الجند السماوي المُسبّحين:

حينما أكمل الملاك إعلانه للرعاة، كان بمثابة إشارة ظهر بعدها في الحال «جمهور من الجند السماوي مُسبّحين الله وقائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس السرور.» (لو ٢: ١٤)

هذه التسبحة المثلثة القوى والمعاني تُذكرنا بتسبحة السيرافيم

التي سمعها إشعيا النبي في رؤياه، فإن كانت التسبحة السيرايمية استعلاناً نبوياً عن طبيعة الثالوث الإلهي المتساوي في القداسة والمجد، فتسبحة الميلاد الملائكية كشف عن صلة قداسة طبيعة الله ومجده في الأعالي بالسلام على الأرض والسرور في الناس!! أو بمعنى آخر أن السلام على الأرض وسرور الإنسان يتوقفان على تقديس الله وتمجيده!! وكأن الميلاد في نظر الملائكة في هذه اللحظة يعبر عن هذه الصلة العميقة بين قداسة طبيعة الله و«سلام الأرض ومسرة الناس». فتسبحة الميلاد الملائكية شرح توضيحي سرّي لمعنى الميلاد وطبيعته!!

المجد لله في الأعالي:

مجد الله هو عظمته ورفعته، وإعطاء المجد لله شهادة لسموه اللانهائي فوق كل ما هو مخلوق ومُدرك. فالله حسب تعبير بولس الرسول «أبو المجد»، أي الذي تُستمدُّ منه كل عظمة وكل سُمُو وكل انتقال من حال إلى حال أعلى، أي أن مجد الله قوّة ترفع الطبائع وتغيّرُها إلى ما هو أسمى.

هنا تسييح الملائكة بإعطاء المجد لله في الأعالي في لحظة الميلاد، هو تأكيد أن هذا التنازل الذي أجراه الله بتجسّد كلمته في طبيعة بشرية لا يُقَص ولا يَحْطُّ من مجد الله، بل هو إعلان جديد عن قدرته الفائقة في إخلاء ذاته. هذا هو مجد اتضاعه الذي أخفى أقوى صفات الله المدركة، وهي محبته التي ظهرت على الصليب مُسحقة في صورتها الباذلة!

هذا الاتضاع صفة جديدة انكشفت للبشرية ولكنها من ذات

صفات الله الصميمة لأنه اتضاع بالمشيئة لم تلوثه الخطية ولم يفرضه العجز، وقد ثبت المسيح في اتضاعه حتى النهاية دون أن تمسكه شهوة الأرض. لذلك لم يعُقه هذا الاتضاع عن قبول مجده الأول «والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كَوْن العالم» (يو ١٧ : ٥). فالجد الذي ناله المسيح ثمناً لاتضاعه في الميلاد وطاعته على الصليب، صار مساوياً تماماً لمجده الأول الذي أحلى نفسه منه ليُكمّل تجسُّده وصلبه!! لأننا نعلم أن الآب مجدّه فعلاً «مجدت وأُجِّد أيضاً» (يو ١٢ : ٢٨) ورفعهُ وأجلسه عن يمينه في العظمة في السماويات فوق كل رياسة وسلطان واسم، وهذا هو برهان التساوي المطلق "الأوموؤوساوسوس"، الذي دافع عنه القديس أثناسيوس.

هذا المجد الذي ناله المسيح بالقوة بعد أن كان له بالطبيعة «لتعلموا ... ما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه في السماويات فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يُسمى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً.» (أف ١ : ١٩ - ٢١)

هذا المجد الذي ناله المسيح بالقوة بمقتضى عمله الذي أكمله على الصليب وفي القبر، والذي أقامه أيضاً، قد صار لنا فيه - نحن المفدين بدمه - نصيب، إذ «أقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات.» (أف ٢ : ٦)

وهكذا صار مجد المسيح الذي اكتسبه باتضاعه وطاعته، هو

مُجَدِّدًا نَحْنُ أَيْضًا: «أَنَا قَدْ أُعْطِيتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أُعْطِيتَنِي.» (يو ١٧ : ٢٢)

هنا يتبيّن عمق تسبحة الملائكة بالذوكصا الكُبرى «المجد لله في الأَعَالِي» في لحظة اتضاع التجسّد في الميلاد، باعتبارها استعلاناً وشهادة ونبوءة، بأن هذا الاتضاع عتيد أن يتمجد بكل مجده ويُزاد عليه شركة البشرية المفدية، فيكون لها نصيب في هذا المجد أيضاً ...

وعلى الأرض السلام:

«سلامي أترك لكم سلامي أعطيتكم ليس كما يُعطي العالم أعطيتكم أنا» (يو ١٤ : ٢٧). في لحظة الميلاد دخلت البشرية بالفعل في عهد مصالحة وسلام مع الله، إذ ظهر يسوع الطفل «ابناً لله وابتناً للإنسان». وهنا يبلغ الصلح والسلام بين الله والإنسان أقصى مفهومه العملي وأبلغ آيات صدقه، بل ويصير سلاماً أبدياً ما دام المسيح!

ولكن يظل السلام في القلب رهين الإيمان بالمسيح وتدخّله، لا كمُصالحٍ بشخصه فقط، بل كفادٍ بدمه. إذ يظل الإنسان متغريباً عن سلام الله الحقيقي حتى يقبل فعل الدم الإلهي في كيانه الروحي وضميره!! وفي اللحظة التي يحس فيها الإنسان بضمير مُطَهَّرٍ من الخطايا بغسل دم المسيح، حينئذ يقبل سلام الله الحقيقي الذي يفوق كل عقل.

لقد كانت تسبحة الملائكة بالسلام على الأرض لحظة الميلاد

حقيقة فعلية للسلام الذي بدأ بتصالح الطبيعتين في شخص المسيح بالميلاد، وكمل على الصليب بالكفارة عن كل خطايا الإنسان!!

في الناس السرور

إن جوهر المسرّة كائن في الوجود مع الله والقرب منه، أما الحزن والبكاء والتنهّد مع اليأس والندم فهي حقيقة البعد عن الله والحرمان من حضرته والوقوع تحت إحساس قصاص عدله.

وهذا السرور قد صار لنا "بميلاد المسيح" الذي تعبیره اللاهوتي هو "دخول الله إلى العالم" أو "حلول الله بيننا"، لأن معنى أن يحل الله في جسد إنسان هو فتح الله لباب المودّة وتأسيس علاقات مع الإنسان وتكوين دالة شخصية معه. وأن يأتي إلينا الله معناه أنه رضي أن نذهب إليه!

هذه المودّة وهذه الدالة وهذا المجيء والذهاب عن طريق يسوع هو منتهى الرجاء ثم منتهى السرور!

«المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرّة»، هذه التسبيحة الملائكية المثلثة القوى هي استعلان كامل لطبيعة الملكوت الذي أدخله المسيح إلى العالم يوم ميلاده العجيب المملوء أسراراً.

(يناير ١٩٦٨)

كتب ومقالات عن التجسد وميلاد المسيح

للأب متى المسكين

كود	إسم الكتاب
١٥	أعياد الظهور الإلهي (مُجمَع لمقالات أعياد الظهور الإلهي)
٦٣	التجسد الإلهي
٦٨	ميلاد المسيح وميلاد الإنسان
١٩٤	كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن الله
١٩٦	أنشودة التجسد
٣٣٨	ميلاد المخلص
٣٣٩	حكماء من المشرق
٣٤٠	رسالة الميلاد لنا اليوم
٣٤١	السماء تنتهياً لنزول الابن
٤٧٣	صوم الميلاد شهر الخلاص
٤٧٤	وُلد لكم اليوم
٤٧٥	أتى المسيح إلينا فكيف نأتي إليه
٤٧٦	المسيح عطاء الله للبشرية
٤٧٧	في وسطكم قائم
٣٧	الإيمان بالمسيح
١٧٢	المسيح ابن الله
١٧٩	عمانوئيل

التسجيلات الصوتية لعظات الأب متى المسكين

- ١/٧٤ بيت لحم مسقط رأسنا
- ٣/٧٦ □ الطفولة الروحية
- ١/٧٧ □ ملكيتنا لميلاد المسيح
- ١/٧٨ □ التجسد فرح الخلاص للبشرية الحزينة
- ١/٧٩ □ ملكوت الله والوجه غير المنظور للميلاد
- ٢/٧٩ □ العهد القديم يمهّد للملكوت الله (كلمة موجهة للرهبان صباح عيد الميلاد)
- ١٥/٨١ □ انتظار مجيء المسيح (١) (له بقية على شريط ١/٨٢)
- ١/٨٢ □ (بقية العظة السابقة) انتظار مجيء السيد المسيح (٢) + عظة عيد الميلاد المجيد
- ١/٨٣ □ هذا هو اليوم الذي صنعه الرب
- ٢/٨٣ □ معجزة الميلاد البتولي ومعجزة خلاصنا
- ١/٨٤ □ زيارة الجوس وتحقيق نبوات العهد القديم
- ١/٨٥ □ نبوات الأنبياء عن ميلاد المسيح (١)
- ٢/٨٥ □ نبوات الأنبياء عن ميلاد المسيح (٢)
- ١٦/٧٩ □ العظة على الجبل (التطويبات) (١) (رفاع صوم الميلاد)
- ١٧/٧٩ □ العظة على الجبل (التطويبات) (٢)
- ١/٩٤ □ م ميلاد ابن الله ليس زمنياً (رأس السنة ١٩٩٤)
- ١/٢٠٠١ □ ميلاد ابن الله ورجوع آدم وذريته إلى الله
- ١٠/٧٤ □ هروب المسيح إلى أرض مصر (١)
- ١٠/٧٤ □ هروب المسيح إلى أرض مصر (٢)